أقسام الناس مع الوحي

عن أبي موسى الأشعريِّ ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال:

١ «مَثَلُ ما بعَثَني اللهُ به من الهُدى والعِلم، كمَثَل الغَيث الكثيرِ أصاب أرضًا:

٢ فكان منها نَقِيَّةٌ، قبِلَت الماءَ، فأنبتَت الكَلَأَ والعُشبَ الكثير.

٣ وكانت منها أجادِبُ، أمسكت الماءَ، فنفعَ اللهُ بها الناسَ، فشَربوا وسَقَوْا وزرعوا.

٤ وأصابت منها طائفةٌ أخرى، إنما هي قِيعانٌ لا تُمسِك ماءً ولا تُنبتُ كلأً.

٥ فذلك مثَلُ مَن فَقُه في دِين الله، ونفَعه ما بعَثَني الله به فعَلِم وعَلَّم، ومَثَلُ مَن لم يرفَعْ بذلك رأسًا، ولم يَقبَلْ هُدى الله الذي أُرسِلْتُ به»

متفق عليه(٥٨).

(٥٨) البخاريُّ (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

آيات

- ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨].
- ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].
- ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤].
- ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].
- ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤- ١٢٦].
- ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

الراوي

هو: أبو موسى، عبدُ الله بن قَيس بن سليم بن حُضَّار بن حرب بن عامر بن الأشعر، الأشعريُّ، الإمام الكبير، الفقيه، صاحب رسول الله ﷺ، ذو الهجرتَين: هجرة الحبشة والمدينة، تولَّى البصرةَ في زمان عمر، فعلَّم أهلَها وفقَّههم في الدين، وأقرأهُم القرآن، وكان أحسنَ الصحابة صوتًا بالقرآن. تُوفِّي سنةَ: (٥٠هـ)[١].

خلاصة

شبه النبيُّ ﷺ أحوال الناس في تلقي الهُدى الذي أنزل الله على نبيه ﷺ؛ فمنهم مَن وعاه، وفهِم ما فيه، وعمِل به، فنفع نفسَه وأفاد غيره، ومنهم من حفظ العلم لغيره أكثر من فهمه له، ومنهم قومٌ أهملوا العلم، لا استفادوا ولا أفادوا غيرهم.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة لأبي نعيم» (٤/ ١٧٤٩)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر» (٤/ ١٧٦٢)، «أسد الغابة لابن الأثير» (٥/ ٣٠٦).

فقـــه

١ يصوّر النبيُّ ﷺ حالَ الناس في قبولهم العلمَ الذي أتى به ﷺ، فجعل ذلك **كالمطر الكثير الذي فيه نفع للناس**، وذكر النبيُّ ﷺ الغيثَ لأنَّ حاجة الناس إليه عظيمةٌ، فكما أنَّ المطر تحيا به الأرضُ، فكذلك العلم يحيي اللهُ به القلوب.

وقد تفاوتت آثار المطر باختلاف طبائع الأراضي التي نزل عليها، كما صوَّر ذلك الحديث الشريف:

٢ فأول نوعٍ من تلك الأرضِ: نـ**قِيَّةٌ طيبة خصبةٌ**، خالية من الآفات، صالحة للزراعة، نزل عليها الماء فتشربته الأرض، وأنبتت **الكَلَأَ** -وهو عموم نبت الأرض-، **والعُشبَ** -وهو النبت الرطب-، فانتفعت الأرضُ حين أحياها الماءُ، ونفعت غيرها حين أنبتت ما يأكله الإنسان والحيوان.

٣ النوع الثاني: **أرضٌ صلبةٌ غير صالحة للزراعة، لا تتشرب الماء سريعًا، وإنما تحتفظ به**، فلا تنتفع بالماء في الزراعة وإنما ينتفع بها الناس حين تجمع لهم مياه الأمطار، فيشربون منها ويسقون دوابَّهم وزروعهم.

٤ والنوع الثالث : **قيعان؛ أي: أرضٌ مستويةٌ ملساءُ، لا تصلح للزراعة ولا تُمسك الماء**، فلا هي انتفعت بالماء فأخصبت وأنبتت، ولا انتفع بها الناس في سُقيا أو زراعة.

٥ ثم فسَّر النبيُّ ﷺ ذلك التصوير : فذكر أن النوع الأول هم العلماء، الذين **فهموا -والفِقْهُ: الفَهْم-** مراد الله ومراد رسوله، فعملوا به وعلَّموه للناس، والنوع الثاني: هم من يكون وسيلة لتوصيل العلم، وإن لم يكن من أهله الخبراء فيه، والنوع الثالث هم الذين لم يقبلوا ما جاء به ﷺ، فلا هم حفظوا وبلَّغوا، ولا فهموا وعملوا. وهؤلاء هم الكُفَّار والفُسَّاق الذين رغبوا عن شرع الله تعالى.

١ كان النبيُّ ﷺ أحسنَ الناس تعليمًا، وقُدرةً على البيان، وحرصًا على هداية الخَلْق، فسلك جميع السُّبل لتبليغ دعوة ربه، وهو هنا: يضرب الأمثال الحسية؛ لأن ذلك يقرِّب المعانيَ العقلية ويساعد في الفهم والتحصيل، فعلى كل داعية أن يستخدم الوسائلَ التي تُيَسِّر فهمه واتباعه.

٢ حاجةُ الناس إلى العلم كحاجةِ الأرض إلى المطر بل أشد، فليكن أول ما تغيث به الناس، وتنفعهم به، وتنفق عليهم منه: هو تعليم دين الله تعالى.

٣ العلمُ ينبُت في القلوب الطيبة، كما ينبتُ العشبُ في الأرض الطيبة، فمن أراد العلم فليطهِّر قلبه من آفات الشرك والحسد والخساسة، وليلجأ إلى الله في ذلك، قال ابن تيمية: «إنّ القلب إذا كان رقيقًا ليّنًا، كان قبوله للعلم سهلًا يسيرًا، ورَسَخ العلم فيه، وثَبَت وأثَّر، وإن كان قاسيًا غليظًا، كان قبوله للعلم صعبًا عسيرًا. ولا بدَّ مع ذلك أن يكون زكيًّا صافيًا سليمًا حتّى يزكوَ فيه العلم ويُثمر ثمرًا طيّبًا، وإلّا فلو قَبِل العلم وكان فيه كَدَر وخَبَث، أفسد ذلك العلم، وكان كالدَّغَل في الزّرع، إن لم يَمنَع الحَبَّ من أن يَنبُت، منعه من أن يزكوَ ويَطِيب، وهذا بيِّن لأولي الأبصار»[٥٩].

٤ أعلى المراتب هي لمن جمع العلم والعمل والتعليم، كالأرض الطيبة قبلت الماء وأنبتت العشب لغيرها، وهم على درجات بقدر جهدهم، فاجتهد في تكميل كل ذلك.

٥ من لم يستطع أن يكون عالمًا فلينقل العلم عن أهله، وقد قال ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»[٦٠]، وربما كان ذلك أنفع من فهمهم وتعليمهم الخاص، كقول النبي ﷺ: «فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»[٦١]، وهو شريك في الأجر لمن ينقل عنه.

٦ متى رأيت في نفسك استثقالًا لهدى الله تعالى وهدى رسوله ﷺ ومدافعة له بالجدل: فراجع نفسك، وطهرها من الكِبر والهوى، واحذر أن تكون ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ

(٥٩) «مجموع الفتاوى» (٩/ ٣١٥، ٣١٦).

(٦٠) البخاريُّ (٣٤٦١)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ.

(٦١) البخاريُّ (١٧٤١)، عن أبي بكرة ﷺ.

وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿ [الأعراف: ١٤٦].

قال الشاعر:

ما الفضلُ إلا لأهلِ العلمِ إنهمُ ... على الهُدى لمن استهدى أَدِلَّاءُ
وقيمةُ المرءِ ما قد كان يُحْسِنُهُ ... والجاهِلونَ لأهل العلمِ أعداءُ
فقمْ بعلمٍ ولا تَطلُبْ به بدلاً ... فالناسُ مَوْتى وأهلُ العلمِ أحياءُ

وقال غيره:

كن عالِمًا في الناسِ أو متعلِّمًا ... أو سامعًا فالعلمُ ثَوْبُ فَخَارِ
من كلِّ فنٍّ خُذْ ولا تجهلْ به ... فالحُرُّ مطَّلِعٌ على الأسرارِ